سورة يوسف

obeikandl.com

﴿ سورة يوسف ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

إعلام منه سبحانه بذهاب الغفلة بالقصص والتذكير، وأن فى عبر من كان قبلنا من الأنبياء والصلحاء وقصصهم جلاء لغفلة القلوب .

قلت: والخطاب جاء موجها لأمته ﷺ فى مواجهته لكونه عنوان الأمة وجسدها الذى يحس بآلامها .

وقد لقينا هذا النوع من الصالحين والأولياء، الذين كانوا يحملون ما يذكرهم بالله درأ لغفلات القلوب وإبعاداً لاستيلاء الظلمات عليهم، لقينا منهم الشيخ محمد أبا بطانية ﷺ بصعيد مصر، كان يحمل معه (تسجيل كاست) يعلقه على كتفه ويستمع طوال وقته إلى القرآن خوف الغفلة .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾

فيه دلالة على علو مقام يوسف على مقام يعقوب عليهما السلام، وقياسنا فى هذا أن كل من سُجِدَ له فى حضرة الله تفوق على من سجد له فى المقام، كآدم عليه السلام فإنه تفوق على الملائكة عندما أسجدهم الحق سبحانه وتعالى له، فإنه ما أسجدهم له إلا لتميزه عليهم وتفضيل الحق سبحانه له على من سجد له فى حضرته .

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥ ﴾

فيه إعلام للمريدين السائرين فى طريق الآخرة أن لا يحكوا رؤاهم للناس حتى لإخوانهم فى الطريق خشية الحسد وخشية انقطاع تلك المبشرات عنهم.

فإن أشد العوالم حسداً هى العوالم الباطنة، فإن المحسود فيها قد لا يعود.

وهذا الحسد يورث الظلمات، فتحل بدل الأنوار فى هيكل المحسود، فيتأخر ترقيه فى طريق سلوكه.

والعبرة فى هذا أن السالك المبتدئ كالنبتة الصغيرة أو كالطفل الرضيع الذى لم يتمكن بعد، ولذلك قالوا إن العارف المتمكن لا يغره بوحه، لتمكنه ولتحققه من الإذن الإلهى، ولتقدمه فى الدفاع الروحى عن نفسه، هذا بخلاف المبتدئ فى طريق القوم فلا يعلم كثيرا ولا قليلا عن هذه الأشياء، إذ هو كالطفل الرضيع .

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦ ﴾

أى يعطيك علم الكشف الإلهى، فيخرجك من جمود الطبع والحواس إلى الانطلاق فى عوالم القدس، فتأول بالبصيرة لا بالبصر، وتستكشف بالنور المحض لا بالحواس العاجزة، فهذا هو تمام الاجتباء الإلهى لك وتمام النعمة عليك وهكذا تلتحق بآبائك السابقين فتبصر كما أبصروا

وتدخل عالم القدس كما دخلوا .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

وهذا الوحى هو من باب خديعة العارف لمن حوله بأنه لا يشعر بما يفعل غيره.

وقد يظن فى العارف الجهل وعدم المعرفة، بينما هو أعظمهم معرفة بما يدور من حوله، قال ﷺ لأصحابه: ((**اعتدلوا فإنى أراكم من خلقى**)).

وقد ورد فى كتاب كشف المحجوب للهجو يرى أن رسول الله ﷺ أتى الجنيد فى المنام وأمره بالتكلم على المريدين، فخرج الجنيد وتكلم وظن أنه قد فاق شيخه السرى السقطى، فلما اجتمع بالسرى ﷺ باغته قائلاً له وأنا رأيت رب العزة فى النوم وقال لي: إنه أرسل إليك رسول الله ﷺ وسلم وأمرك بالتكلم على الخلق، فبهت الجنيد وتحقق من اطلاع السرى التام على أحواله.

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾

أى أدلى دلو العناية والإنقاذ

﴿ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

جعلت العناية أسره ورقه هو عين تكريمه، وهو من باب جعل عين العناية فى عين الهلاك، كما ألقى موسى فى اليم فى تابوت العناية .

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

وهكذا بيع الأكابر بثمن بخس دراهم معدودة، فلا يعرف أهل الحجاب قيمة الأكابر الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يؤبه لهم، ويقول ﷺ: ((**رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**)).

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴿٢١﴾ ﴾

فيه اعلام لأهل الإرادة أن الممكن هو الله لا هم بأنفسهم فيستحيل للعبد أن يأتى بالقوة الممكنة من قبل نفسه ، وفيه أدب جلى للعارف أن يتبرأ من حوله وقوته وأن يترك نفسه مع الإرادة الإلهية كالريشة فى الهواء وكالقشة فى الماء تلقيها الأمواج حيث تشاء .

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

والعارف هو من أمر الله، فهو سبحانه يوجهه حيث يشاء فى بحر أقداره .

فأين أنت أيها الفناء فى بحار الغلبة الإلهية ومن تكون؟

سبحان من غلب بصنعته، وقهر بما برأ من فطرته، سبحانه من سول للكافر أن يقهر المؤمن لحكمة ما، وسبحان من مكن للمؤمنين قهر الكافرين .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

أى ولما بلغ أشده فى المعرفة والذوق آتيناه تصرفاً فى الممكنات والأعيان، وهو المعبر عنه بالحكم، وهو الذى يعبر عنه عند الأولياء فيما بينهم فيقولون: فلان من أهل التصريف وقد يقولون: فلان عليه حكم فافهم .

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

راودته لوائح المعرفة التى هو ــ أى العارف ــ مقيم فى بيتها عن نفسه، لكى تمكنه منها، فيثقب بكارتها، ويدخل بيوتا لم تدخل من قبل، فلما دخل هذا العارف ذلك البيت أغلقت عليه ألسنة الحقائق الأبواب، وقالت له: أقبل هيت لك، وغيرك لا، لكون تلك المعارف والحقائق مرصودة لهذا العارف بعينه دون سواه، فقال لسان ذلك العارف من باب الإنكار لما شاهد تلك الحقائق معاذ الله إنه ربى احسن مثواى .

ذلك لكون العارف أول ما يتلقى تلك المعارف يتلقاها بالإنكار والنفور، لكونه يتلقاها بعقله المجرد، ثم لا يلبث أن توطأ له وتمهد، فيخرج بها من طور العقل إلى طور الروح المجرد، ألا تنظر إلى العارف الأكبر سيدنا محمد ﷺ كيف قابل تلك الحقائق بالرفض والإنكار، فقيل له اقرأ ثلاث مرات وهو يقول: ما أنا بقارئ .

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا

﴿ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله ولقد همت به وهم بها، يحكى مولانا عز وجل صراع العارف مع الحقائق الإلهية وتقاذفه بين تلك الأمواج العاتية، إلى أن يرى برهان ربه فتهدأ نفسه وتطمئن، فإن العارف فى بداية الفتح محتاج إلى التثبيت مما لاشك فيه، وقد قرأنا الكثير عن ساداتنا من العارفين منهم من يرسل إليه ولى أكبر منه شأنا فيمكث معه هنيهة لكى يتثبت به فى بداية الفتح، وحتى لا تختلط العلوم الظلمانية به، حتى يتصفى فتحه فيكون نورانياً صرفاً، وقد خاض فى ذلك طويلاً صاحب الإبريز فراجعه إن شئت .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

اختيار العارف للعذاب ــ أى السجن ــ أحلى عنده وأعذب من اختيار النعيم، إن كان فيه ــ أى السجن ــ مرضاة لخالقه وخروجاً عن دائرة المعصية، والحق عز وجل يحب أن يرى أحبابه يتعذبون بحبه، ويتأوهون فى طلبه ويتضورون بعشقه والهيام به .

﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾

وهل طلب يوسف عليه السلام خزائن الأرض لحبه للمال ؟ ولكن هى تولية إلهية له لكونه حفيظاً عليماً: أى حفيظ لتلك الخزائن، عليم بالمحتاج والجائع .

وورد أنه قيل ليوسف عليه السلام: أتجوع وتحتك خزائن الأرض ؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع .

وقد يراد منها الخزائن المعنوية وهى إشارة إلى خلافته عن الله فى

الأرض .

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧ ﴾

وفيه نكتة عجيبة ونادرة إلهية فريدة وهو خوف الأنبياء من القوة الحاسدة المتسلطة، وهو يبين مدى القوة الحاسدة بين الأعيان حتى أن الأنبياء خافوها على أولادهم حتى قال يعقوب وما أغنى عنكم من الله من شيء .

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٗ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ ﴾

وهو من باب حلم الأنبياء على من يقع فيهم أمامهم، وله أمثلة كثيرة ذلك لكونه أنه من خصال الأنبياء الحلم.

أقول وفيه نكتة وهى أنه من حق العارف إظهار عيب الإنسان، ولا يعد ذلك غيبة حيث قال: أنتم شر مكاناً والله اعلم بما تصفون .

وهذا متفق عليه عند علماء الجرح والتعديل ومنه انبثق علم الجرح والتعديل .

﴿ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٨٣ ﴾

قوله عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً، هو من باب المكاشفة ولكنه

علم أنه مرهون بالصبر الجميل، أى أنه ليس من باب الترجى فليفهم .

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾

اعلم أيدنى الله وإياك بروح منه أن سيدنا محمداً ﷺ مات كل أولاده الذكور ولم يفعل كيعقوب عليه السلام، فى شدة حزنه على واحد فقط حتى عمى من شدة البكاء وابيضت عيناه من الحزن، وحتى قال له أولاده: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾، والحرض هو التلف .

وهذا يبين علو مقامه ﷺ على غيره من الأنبياء، وعدم تحكم الحزن فيه، وتحكمه فى مزاجه وذاته الشريف ﷺ ، فإن تمكن الحزن فى مزاج يعقوب ليس بنقص، ولكن تحكمه فى سيدنا محمد ﷺ يعد نقصاً، ولذلك أبعده الحق تعالى عنه ﷺ، لكون جوهر ذاته أنقى فلا يتأثر بالصفات البشرية كالحزن فى يعقوب، والغضب فى موسى، فقد ورد فى الحديث الشريف أنه ﷺ عندما أسرى به سمع صوتاً فقال: يا جبريل ما هذا؟ فقال: هذا موسى يكلم ربه بحدة، فهذا الحدة وذاك الحزن فى حق محمد ﷺ نقص، وفى حق سواه كمال فافهم إن كنت من أهل الفهم .

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

وهو من باب رؤية العفو المطلق عند الأكابر ورؤية الرحمة المطلقة فى الأكوان وهو من باب التخلق بأخلاق الله تعالى إذ يقول سبحانه: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ .

﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

وهذا مقام أقطاب الشم وقد عبر عنه نبينا محمد ﷺ عندما قال: ((**إنى لأجد نفس الرحمن من ههنا**)) وأشار إلى جهة اليمن، وعبر عنه شاعر القوم بقوله:

أشم منك نسيماً لست أعرفه أظن لمياء جرت فيك أذيالا

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ ﴿١٠٠﴾ ﴾

أى الصالحون والأولياء من أهل زمانه أقروا له بالقطبانية فى الديوان ذلك لكون العرش هو موضع جلوس القطب، وموضع التمكن من محله والله أعلم .